الفصل الثانى

أهمية النيَّة فى تحقيق الإخلاص

● **استحضار النيَّة وتجريدها لله :**

لا يتحقق الإخلاص فى العمل إلا بعنصرين أساسيين :

الأول : استحضار النية فيه ، فإنما الأعمال بالنيَّات ، ومَن أدَّى العمل أداءً آلياً ، بغير نية طيبة أو خبيثة ، لم يدخل فى زُمرة المخلصين .

والثانى : تجريدها من الشوائب الذاتية والدنيوية ، حتى تخلص لله سبحانه .

* *

● **أهمية النيَّة فى القرآن الكريم :**

والقرآن يُعبِّر عن هذه النية المشروطة بعبارات مختلفة مثل : إرادة الآخرة ، أو إرادة وجه الله ، أو ابتغاء وجهه ، أو ابتغاء مرضاته .

يقول تعالى : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ (٢) .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) آل عمران : ١٤٥ (٣) هود : ١٥ - ١٦

فهؤلاء هم عبيد الدنيا ، الذين جعلوا لها كل إرادتهم وسعيهم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ (١) .

قسمت الآيتان الناس إلى قسمين : مريد العاجلة ، وهى الدنيا ، بمعنى أنه ليس له هدف سواها ، ومصيره ما ذكرت الآية : جهنم ، ومريد الآخرة ، الذى جعلها هدفه ، وسعى لها سعيها ، فمصيره ما ذكرت الآية .

الجزاء إذن مرتب على « الإرادة » و« المراد » ، فخبرنى : ما مرادك وقصدك ؟ أخبرك : ما مصيرك وجزاؤك !

وهذا المعنى تكرر فى القرآن : ﴿ مَنَ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِه ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٣) .

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ ﴾ .... الآية (٧) .

---

(١) الإسراء : ١٨ - ١٩ (٢) الشورى : ٢٠ (٣) الأنعام : ٥٢
(٤) الروم : ٣٩ (٥) الليل : ١٧ - ٢٠ (٦) البقرة : ٢٧٢
(٧) البقرة : ٢٦٥

obeikandl.com

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) .

وأود أن أنبه هنا : أنه لا تعارض بين إرادة الله تعالى وإرادة الآخرة ، بل لا ثنائية ، فلا معنى لتعليق مَن علَّق على قوله تعالى : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (٢) بقوله : فأين مَن يريد الله ؟ . لأن الذين يريدون الآخرة ما أرادوا إلا الله ، فإرادة الآخرة تعنى : إرادة مثوبته ورضوانه ، ورجاء ما عنده سبحانه .

ولا يُعاب المخلص بأنه يرجو الجنَّة ويخاف النار ، فقد وصف القرآن الأنبياء والصالحين بالرجاء والخوف ، والرغب والرهب ، وليس بعد القرآن بيان (٣) .

والجنَّة ليست دار النعيم الحسى فحسب ، بل هى دار الرضوان الأكبر ، والتنعم بالنظر إلى وجه الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٤) . فأما الكفار فإنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ؛ وهذا الحجاب هو أقسى العذاب .

* *

● أهمية النيَّة فى السُّنَّة :

أما السُّنَّة فقد ورد فيها الكثير فى فضل النية والإخلاص ، أذكر منها بعض ما انتقيته مما ذكره الإمام المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » ، وأودعته كتابى « المنتقى من الترغيب والترهيب » ، وقد بدأها وبدأ كتابه كله بحديث الثلاثة أصحاب الغار ، وهو حديث متفق عليه ، وسأذكره بعد ، عند الحديث عن ثمرات الإخلاص .

---

(١) النساء : ١١٤ (٢) آل عمران : ١٥٢

(٣) وضحنا هذه القضية بأدلتها فى كتابنا « العبادة فى الإسلام » ، وفى مقدمة كتابنا « المنتقى من الترغيب والترهيب » ص ٣٧ - ٤١

(٤) القيامة : ٢٢ - ٢٣

وثنّى بحديث أبى أمامة : فيمن سأل عمّن غزا يلتمس الأجر والذكر (أى الأجر من الله والذكر عند الناس) وأجاب النبى ﷺ ثلاث مرات : « لا شىء له » ! ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى به وجهه » (رواه النسائى بإسناد جيد ، وسيأتى بلفظه) .

ثم ثلّث بحديث عمر المشهور : « إنما الأعمال بالنية - وفى رواية : بالنيات - وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يَنْكِحُهَا فَهِجرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » (١) (رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ ، فَإِذَا كَانُواْ بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ » . قالت : قلتُ : يا رسول الله ؛ كيف يُخسف بأولهم وآخرهم ، وفيهم أسْوَاقُهم (٢) ومن ليس منهم ؟ قَالَ : « يُخسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ ، ثمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ » (رواه البخارى ومسلم وغيرهما) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا يُبعَثُ النَّاسُ عَلَى

---

(١) الحديث من أصول السُّنَّة بل من أصول الإسلام ، حتى قال بعض السَلَف : هو ربع الإسلام ، وقال آخر : بل ثلث الإسلام ، وقال الشافعى : يدخل فى سبعين باباً من العلم ، ولا ريب أن النية شرط لقبول العبادات ، كما أنها تحول العادات والمباحات إلى طاعات وقربات ، كما دلت على ذلك أحاديث كثيرة ، ولكن المعاصى والمحرَّمات لا تؤثر فيها النية ، فمن أكل الربا ليبنى مسجداً ، رُدَّ عليه ، ولا أثر لنيته فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

(٢) أسواقهم : إن كان جمع سوق ، فالمراد به أهلها ، وإن كان جمع سوقة - وهم الرعية - فظاهر . كما فى « مجمع بحار الأنوار » ، والمراد بهم : الضعفاء والأسارى ونحوهم ممن لا نية له فى الغزو والتخريب .

نِيَّاتِهِمْ » (رواه ابن ماجه بإسناد حسن) [١] ، ورواه أيضاً من حديث جابر إلا أنه قال : « يُحْشَرُ النَّاس » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تَبُوك مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « إن أقْوَامًا خَلْفَنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً ولا وَادِياً إلا وَهُمْ مَعَنَا ، حَبَسَهُمُ العذر » [٢] (رواه البخارى ، وأبو داود) ، ولفظه : إن النبى ﷺ قال : « لَقَدْ تَرَكْتُمُ بالمَدِينَةِ أقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً ، ولا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَة ، ولا قَطَعْتُمُ مِنْ وَادٍ ، إلا وهُمْ مَعَكُمْ » . قالوا : يا رسول الله ؛ وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قالَ : « حَبَسَهُمُ المَرَضُ » .

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رسُولُ الله ﷺ : « إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى أَجْسَادِكُم ، ولا إلى صُوركُمَ ، ولَكِنْ يَنْظر إلَى قُلُوبِكُمْ » [٣] (رواه مسلم) .

وعن أبى كَبْشَةَ الأنمارى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « ثَلاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنّ وأحَدِّثُكم حَدِيثاً فاحْفَظُوه » . قال : « مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَة ، ولا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إلا زَادَهُ الله عزاً ، ولا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ » (أو كلمة نحوها) .

« وأحَدِّثُكم حَدِيثاً فاحْفَظُوهُ » قَالَ : « إنَّمَا الدُّنْيَا لأرْبَعَةِ نَفَر : عَبْدٌ رَزَقَهُ

---

(١) رواه فى الزهد (٤٢٢٩) ونقل محققه عن الزوائد للبوصيرى : أن فى إسناده ليث بن أبى سليم وهو ضعيف قال : ويشهد له حديث جابر بعده (٤٢٣٠) وقد رواه مسلم .

(٢) من هؤلاء : الذين لم يكن لديهم ركائب تنقلهم إلى تبوك ، ولا أموال يشترون بها ركائب ، وهم الذين ذكرهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة : ٩٢) .

(٣) لهذا كانت أعمال القلوب هى الأساس فى الدين أمراً ونهياً ، فأفضل العبادات عبادات القلوب ، وأخطر المعاصى معاصى القلوب ، وهى المهلكات .

اللهُ مَالاً وعِلْماً [1] ، فَهُوَ يَتّقى فيه رَبَّهُ ويَصِلُ فيه رَحِمَهُ ، ويَعْلَمُ لله فيه حَقّاً ، فَهَذا بأفْضلِ المَنَازلَ ، وَعَبْدٌ رَزَقَه اللهُ عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْه مَالاً ، فَهُوَ صَادق النِّيّة [2] يَقولُ : لَوْ أَنَّ لى مَالاً لَعَمِلتُ بِعَمَل فُلان ، فهوُ بنيَّته ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ الله مالاً ، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً ، يَخْبِطُ فى مَاله بِغَيرِ عِلْم ، ولا يَتّقى فيه رَبَّهُ ، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَهُ ، ولا يَعْلَمُ لله فيه حَقّاً ، فَهَذا بأخْبَث المَنازل ؛ وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلا عِلْماً فَهُو يَقُولُ : لَوْ أنَّ لى مَالاً لَعَمِلْتُ فيه بِعَمَل فُلانٍ ، فَهُوَ بِنِيتِه ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءُ » [3] (رواه أحمد والترمذى واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح) [4] .

وعن أبى هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عَزَّ وَجَلَّ : إذا أرَادَ عَبْدِى أنْ يَعْمَلَ سَيّئَةً فَلا تَكْتُبُوهَا عَلَيْه حَتَّى يَعْمَلَهَا ؛ فَإنْ عَملهَا فاكْتُبُوها بمثْلها ، وَإنْ تَرَكَهَا مِنْ أجْلِى فاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإنْ أرَادَ أنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعمَلْهَا اكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ؛ فَإنْ عَملهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا ، إلى سَبْعمَائَة » (رواه البخارى ، واللفظ له ، ومسلم) .

وفى رواية لمسلم قال : عن محمد رسول الله ﷺ قال : « قال الله عَزَّ وجَلَّ : « إذَا تَحَدَّث عَبْدِى بِأنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فأنَا أكْتُبُهَا له حَسنةً مَا لَمْ

---

(١) المراد بالعلم هنا : البصيرة والمعرفة الراسخة التى تنير لصاحبها الطريق ، وهو يدلنا على أهمية المعرفة فى السلوك الأخلاقى ، فلا فضيلة بلا معرفة ، كما أن لا عبادة بلا علم .

(٢) صدق النية يدل على أن الأمر ليس مجرد خاطرة تمر بالبال ثم تنطفئ الشرارة ، بل هى خط نفسىّ عميق ؛ يجعل صاحبه يعيش بهذا الأمر ، حالماً به ، حريصاً عليه ، راغباً فيه ، لهذا استوى فى الأجر هو وصاحب العمل .

(٣) هذا هو أخيب الرجلين ، فقد خسر الآخرة ، ولم يكسب الدنيا ، والسبب سوء نيته .

(٤) الحديث فى مسند أحمد : ٤/ ٢٣١ ، وهو فى الترمذى (٢٣٢٦) .

يَعْمَلْها ، فإذا عَملها فأنَا أكْتُبُهَا لَه بِعَشْرِ أمْثَالِهَا ، وَإذَا تَحدَّثَ عبدى بأنْ يَعمَلَ سَيئَةً فأنَا أغْفرُها لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْها ، فإذا عَملها فأنا أكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا ، وَإنْ تَرَكَها فاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، إنما تركَها مِنْ جَرَّاىَ » .

قوله : « مِنْ جَرَّاىَ » - بفتح الجيم وتشديد الراء - : أى من أجلى .

وعن مَعْنِ بن يزيد رضى الله عنهما قال : كان أبى « يزيدُ » أخرج دنانير يتصدق بها ، فوضعها عند رجل فى المسجد ، فجئت فأخذتها فأتيته بها ، فقال : والله ما إياك أردت ، فخاصمته إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : « لَكَ ما نَوَيْتَ يا يزيد ، ولَكَ مَا أَخَذْتَ يا مَعْنُ » (رواه البخارى) .

وعن أبى هُرَيْرَةَ رَضىَ اللهُ عنه أن رسُولَ الله قال : « قَالَ رَجُلٌ : لأتَصدَّقَنَّ [اللَّيْلَةَ] بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصدَقَتِه فَوَضَعَهَا فى يَدِ سَارِقٍ فأصْبَحُوا يَتَحدَّثُونَ : تُصُدِّق اللَيْلَةَ عَلى سَارِقٍ فَقَالَ : اللَّهُمَ لَكَ الحَمْدُ عَلى سارق ، لأتَصدَّقَنَّ بصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِه فَوَضَعَهَا فى يد زَانِية ، فأصْبَحُوا يَتَحدَّثُونَ : تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلى زَانِية ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِية ، لأتَصدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصدَقَتِه فَوَضَعَهَا فى يَدِ غَنِىّ ، فأصْبَحُوا يَتَحدَّثُونَ : تُصُدِّقَ اللَيْلَةَ عَلَى غَنِىّ ، فقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ عَلى سَارِقٍ وَزَانِيَةٍ وَغَنِىّ ، فأُتِى (أى فى المنام) فقيل له : أما صدقتك على سارق : فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية ، فلعلها أن تستعف من زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله » (رواه البخارى - واللفظ له - ومسلم والنسائى) ، وقالا فيه : « أما صدقتك فقد تقبلت » ثم ذكر الحديث .

دلَّت هذه الأحاديث الوفيرة وغيرها - مع ما جاء فى كتاب الله - على قيمة النية وأهميتها فى الدين ، وأن روح العمل هى « النية » ، ولكن ما هى النية التى رتبت عليها الأحاديث كل هذه النصائح ؟

* *

● حقيقة النيَّـة :

قال الجوهرى فى الصحاح : النية العزم .

وقال الخطابى : هى قصدك الشىء بقلبك ، وتحرِّى الطلب منك له .

وقال البيضاوى : هى انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض ، من جلب نفع ، أو دفع ضر ، حالاً أو مآلاً .

قال : والشرع خصها بالإرادة المتوجهة نحو الفعل ، ابتغاء لوجه الله تعالى ، وامتثالاً لحكمه .

وقال العراقى فى شرح التقريب : اختُلِف فى حقيقة النية ، فقيل : هى الطلب ، وقيل : الجد فى الطلب ، ومنه قول ابن مسعود : مَن ينو الدنيا تعجزه ، أى من يَجِدّ فى طلبها .

وقال الزركشى فى قواعده : حقيقة النية ربط القصد بمقصود معين ، والمشهور : أنها مطلق القصد إلى الفعل .

وقال الماوردى : النية قصد الشىء مقترناً بفعله ، فإن قصده وتراخى عنه فهو عزم [1] .

* *

● النية إرادة جازمة :

ولا ريب أن النية التى صحَّت بها الأحاديث النبوية ، التى سقنا عدداً منها ، وترتب عليها الجزاء ثواباً وعقاباً - وإن لم يقترن بها عمل - إنما تتمثل فى الإرادة الجازمة المصممة المتوجهة نحو الفعل ، خيراً كان أم شراً ، واجباً أو مستحَباً ، أو محظوراً ، أو مكروهاً ، أو مباحاً ، ولهذا تكون أحياناً نية صالحة

---

(١) انظر شرح الإحياء للزبيدى : ١٠/٣٦ ، ٣٧ - طبع دار الفكر ، بيروت .

محمودة ، وأحياناً نية سيئة مذمومة ، حسب المنوى : أى شيء هو ؟ وحسب المحرِّك الباعث : أهو الدنيا أم الآخرة ؟ أهو وجه الله أم وجوه الناس ؟

وليست النية إذن مجرد خاطرة تطرأ على القلب لحظة ثم لا تلبث أن تزول ، فلا ثبات لها ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله عفا عن أُمتى ما حدَّثت بها أنفسها ، ما لم تعمل به ، أو تتكلم به » (١) ، وهذا يؤيد ما قاله بعضهم من أن النية ليست مجرد الطلب ، بل الجد فى الطلب .

وعلى هذا الأساس رأينا فى الحديث : الفقير الذى لا مال له ، يحصل - ببصيرته وصدق نيته - أجر الغنى الذى أنفق وتصدَّق فى سبيل الله ، قال : « فهما فى الأجر سواء » .

ورأينا فى مقابله : الفقير الذى عاش حياته فى الفقر والبؤس ، يحصل - بغبائه وسوء نيته - وزر الغنى الذى أنفق ماله فى الشهوات ومعصية الله .

كما رأينا الحديث يحكم على المسلَمَيْن المقتتلَيْن بأنهما فى النار ، القاتل بقتله ، والمقتول ، لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه ، وذلك إذا كان اقتتالهما لأجل الدنيا .

* *

● **النية محلها القلب :**

وهذه النية عمل قلبى خالص ، وليست من أعمال اللِّسان ، ولذا لم يُعرف عن النبى ﷺ ولا عن أصحابه ولا عن تابعيهم بإحسان من سَلَف الأُمة : التلفظ بالنية فى العبادات ، مثل الصلاة والصيام والغُسْل والوضوء ، ونحوها ، وهو ما نرى بعض الناس يجهدون أنفسهم فى الإتيان به ، مثل قولهم : نويتُ رفع الحَدَث الأصغر أو الأكبر ، أو نويتُ صلاة الظهر أو العصر أربع ركعات

---

(١) رواه الستة عن أبى هريرة ، صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٧٣٠) - طبع المكتب الإسلامى ، الطبعة الثانية .

علىَّ لله العظيم ، أو نويتُ الصيام غداً من شهر رمضان .... إلخ ، وكل هذا لم يأت به قرآن ولا سُنَّة . ولا معنى له ، إذ لا يقول الإنسان إذا أراد الذهاب إلى السوق : نويت الذهاب إلى السوق ، أو إذا نوى السفر : نويت السفر ! ونقل الزركشى عن الغزالى فى فتاويه قوله : أمر النية سهل فى العبادات ، وإنما يتعسر بسبب الجهل بحقيقة النية أو الوسوسة (١) .

* *

● الأعمال بمقاصدها :

ولأهمية النية فى توجيه العمل وتكييفه وتحديد نوعه وقيمته ، استنبط العلماء قاعدة فقهية من أرسخ قواعد الفقه ، التى عنيت بها كتب القواعد والأشباه والنظائر ، وهى : الأُمور بمقاصدها ، وفرَّعوا عليها فروعاً كثيرة ، منها : العبرة فى العقود للمقاصد والمعانى ، لا للألفاظ والمبانى .

ومن فروعها ما عبَّر عنه الحديث : « إن الله عفا لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استُكْرِهوا عليه » (٢) .

وذلك لعدم وجود النية فى هذه الثلاثة : الخطأ والنسيان والإكراه .

كما استشهد الإمام البخارى - رحمه الله - بحديث : « إنما الأعمال بالنيَّات » على إبطال « الحيل » التى يُنسب إلى بعض الفقهاء الإفتاء بجوازها ، ومعناها : أن العبرة بالصورة لا بالحقيقة ، وبالشكل لا بالجوهر ، وباللَّفظ لا بالمعنى .

---

(١) انظر : المنثور فى القواعد للزركشى : ٣/ ٢٨٤ ، نشر أوقاف الكويت .

(٢) الحديث روى بألفاظ مختلفة ومتقاربة ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (١٧٣١) ونسبه إلى أحمد وابن ماجه عن أبى ذر ، وإلى الطبرانى والحاكم عن ابن عباس ، والطبرانى عن ثوبان ، ثم ذكره برقم (١٨٣٦) ونسبه إلى ابن ماجه عن ابن عباس ، ثم ذكره برقم (٧١١٠) ونسبه إلى البيهقى عن ابن عمر .

رغبة في رخصة محققة من تعنت ، وأقاموا عليه الأدلة الناصعة من سنة رسوله ﷺ ، ومن هَدْى الصحابة وسَلَف الأُمة [1] .

* *

● تنوع جزاء العمل الواحد بتنوع نيَّته :

ومن تأثير النية فى الأعمال : أن العمل الواحد يتنوع حكمه الشرعى ، وقيمته الأخلاقية ، وجزاؤه الأخروى ، تبعاً لنية صاحبه .

ومن الأمثلة التى ذكرها الحديث لذلك ، اقتناء الخيل ، فهى لرجل أجر ، ولآخر وزر ، ولثالث ستر ، أو كما سماها حديث آخر : « فرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان » وما ذلك إلا بسبب النية والقصد .

روى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار مرفوعاً : « الخيل ثلاثة : فرس يرتبطه الرجل فى سبيل الله ، فثمنه أجر ، وركوبه أجر ، وعاريته أجر . . وفرس يغالق عليه الرجل ويراهن (فرس القمار) ؛ فثمنه وزر ، وركوبه وزر . . وفرس للبطنة ، فعسى أن يكون سداداً من الفقر إن شاء الله » [2] .

وروى عن ابن مسعود : « الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان ؛ فأما فرس الرحمن ، فالذى يُرتبط فى سبيل الله عَزَّ وجَلَّ ، فعلفه وبوله وروثه - وذكر ما شاء الله - (يعنى فى ميزان صاحبه حسنات كما صح فى حديث آخر) ، وأما فرس الشيطان فالذى يُقامَر عليه ويُراهَن ، وأما فرس الإنسان ، فالفرس يرتبطها الإنسان ، يلتمس بطنها (أى نتاجها) فهى ستر من فقر » [3] .

---

(١) انظر : كتاب ابن تيمية « إقامة الدليل على بطلان التحليل » وما كتبه ابن القيم فى إبطال الحيل فى كتابيه : « إعلام الموقعين » ، و« إغاثة اللَّهفان » .

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، كما قال المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ، والهيثمى فى المجمع : ٥/٢٦ عن رجل من الأنصار .

(٣) رواه أحمد عن ابن مسعود بإسناد حسن كما قال المنذرى .

وقد جاء هذا التقسيم الثلاثى فى الصحيحين من حديث أبى هريرة .

وقال الحافظ السيوطى : قال العلماء : النية تؤثر فى الفعل ، فيصير بها تارة حراماً ، وتارة حلالاً ، وصورته واحدة ، كالذبح مثلاً ، فإنه يُحِل الحيوان إذا ذُبح لأجل الله ، ويُحَرِّمه إذا ذُبح لغير الله ، والصورة واحدة .

وقال المحقق ابن القيم فى كتاب « الروح » : الشىء الواحد تكون صورته واحدة ، وهو ينقسم إلى محمود ومذموم ، فمن ذلك : التوكل والعجز ، والرجاء والتمنى ، والحب لله والحب مع الله ، والنصح والتأنيب (التشهير) ، والهدية والرشوة ، والإخبار بالحال والشكوى ، فإن الأول من كل ما ذكر محمود ، وقرينه مذموم ، والصورة واحدة ، ولا فارق بينهما إلا القصد [1] .

* *

● النيَّة ومقاصد الشريعة :

وفى « إعلام الموقِّعين » أسهب ابن القيم فى بيان أهمية النية والقصد فى تحديد قيمة العمل ، وأن العملية قد تكون صورتهما واحدة ، وهذا قُربة صحيحة وهذا معصية باطلة . وذلك بسبب النية والقصد .

« من ذلك : عصر العنب بنية أن يكون خمراً معصية ، ملعون فاعله على لسان رسول الله ﷺ ، وعصره بنية أن يكون خلاً أو دِبساً جائز وصورة الفعل واحدة .

وكذلك السلاح يبيعه الرجل لمن يعرف أنه يقتل به مسلماً حرام باطل لما فيه من الإعانة على الإثم والعُدْوان ، وإذا باعه لمن يعرف أنه يجاهد به فى سبيل الله فهو طاعة وقُربة .

وكذلك عقد النذر المعلَّق على شرط ينوى به التقرب والطاعة ، فيلزمه الوفاء بما نذره ، وينوى به الحلف والامتناع فيكون يميناً مُكَفَّرة .

وكذلك تعليق الكفر بالشرط ينوى به اليمين والامتناع فلا يكفر بذلك ، وينوى به وقوع الشرط فيكفر عند وجود الشرط وصورة اللَّفظ واحدة .

وكذلك ألفاظ الطلاق صريحها وكنايتها ينوى بها الطلاق فيكون ما نواه ، وينوى به غيره فلا تُطلَّق .

---

(١) انظر : إتحاف السادة المتقين فى شرح الإحياء للزبيدى : ١٠/٣٩

وكذلك قوله « أنْت عندى مثل أُمِّى » ينوى به الظِّهَار فتحرم عليه ، وينوى به أنها مثلها فى الكرامة فلا تحرم عليه .

وكذلك مَنْ أدَّى عن غيره واجباً ينوى به الرجوع مَلَكه ، وإن نوى به التبرع لم يرجع .

وهذه كما أنها أحكام الرب تعالى فى العقود ، فهى أحكامه تعالى فى العبادات والمَثوبات والعقوبات ؛ فقد اطّردت سُنَّته بذلك فى شرعه وقدره .

أما العبادات فتأثير النيات فى صحتها وفسادها أظهر من أن يُحتاج إلى ذكره ؛ فإن القُربات كلها مَبْنَاها على النيات ، ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقَصْد ، ولهذا لو وقع فى الماء ولم ينو الغُسْل ، أو دخل الحمَّام للتنظيف ، أو سَبَحَ للتبرد ، لم يكن غُسْله قُربة ولا عبادة بالاتفاق ، فإنه لم ينو العبادة فلم تحصل له ؛ وإنما لامرىء ما نوى .

ولو أمْسَكَ عن المُفْطِّرات عادة واشتغالاً ولم ينو القُربة ، لم يكن صائماً .

ولو دار حول البيت يلتمس شيئاً سقط منه لم يكن طائفاً .

ولو أعطى الفقير هبة أو هدية ولم ينو الزكاة لم يحسب زكاة .

ولو جلس فى المسجد ولم ينو الاعتكاف لم يحصل له .

وهذا كما أنه ثابت فى الإجزاء والامتثال فهو ثابت فى الثواب والعقاب ؛ ولهذا لو جامع أجنبية يظنها زوجته لم يأثم بذلك وقد يُثاب بنيته .

ولو جامع فى ظُلمة مَنْ يظنها أجنبية ، فبانت زوجته أثم على ذلك بقصده ونيته للحرام .

ولو أكل طعاماً حراماً يظنه حلالاً لم يأثم به ، ولو أكله وهو حلال يظنه حراماً وقد أقدم عليه أثم بنيته .

وكذلك لو قتل مَنْ يظنه مسلماً معصوماً فَبَانَ كافراً حربياً أثم بنيته ، ولو رمى صيداً فأصاب معصوماً لم يأثم . ولو رمى معصوماً فأخطأه وأصاب صيداً أثم ، ولهذا كان القاتل والمقتول من المسلمين فى النار لنية كل واحد منهما قتل صاحبه .

فالنية روح العمل ولُبُّه وقوامه ، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها ، والنبى ﷺ قد قال كلمتين كَفَتَا وشَفَتَا وتحتهما كنوز العلم ؛ وهما قوله : « إنما الأعمال بالنيَّات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

فبيَّن فى الجملة الأولى : أن العمل لا يقع إلا بالنية ، ولهذا لا يكون عمل إلا بنية .

ثم بيَّن فى الجملة الثانية أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه . وهذا يعم العبادات والمعاملات والأيمَان والنذور وسائر العقود والأفعال .

وهذا دليل على أن مَنْ نَوَى بالبيع عقد الربا حصل له الربا ، ولا يعصمه من ذلك صورة البيع .

وأن مَنْ نوى بعقد النكاح التحليل كان محلِّلاً ، ولا يخرجه من ذلك صورة عقد النكاح ؛ لأنه قد نوى ذلك ، وإنما لامرىء ما نوى ؛ فالمقدمة الأولى معلومة بالوجدان ، والثانية معلومة بالنص .

وعلى هذا فإذا نوى بالعَصْر حصولَ الخمر كان له ما نواه ، ولذلك استحق اللَّعنة .

وإذا نوى بالفعل التحيُّلَ على ما حرَّمه الله ورسوله ، كان له ما نواه ؛ فإنه قصد المحرَّم وفعل مقدوره فى تحصيله ، ولا فرق فى التحيل على المحرَّم بين الفعل الموضوع له وبين الفعل الموضوع لغيره إذا جُعل ذَريعة له ، لا فى عقل ولا فى شرع ؛ ولهذا لو نهى الطبيبُ المريضَ عما يؤذيه وحَمَاه منه فتحيَّل على تناوله عُدَّ متناولاً لنفس ما نُهى عنه » (١) .

* *

● أثر النيَّة فى المباحات والعاديات :

ومن أهم ما تؤثر فيه النية : المباحات والعاديات ، فإنها تتحول بالنية إلى عبادات وقربات ، فالعمل لكسب الرزق فى زراعة أو صناعة أو تجارة أو حرفة أو وظيفة ، يغدو عبادة وجهاداً فى سبيل الله ، إذا كان عمله ليعف نفسه عن الحرام ، ويغنيها بالحلال .

والأكل والشرب واللبس والتجمل كذلك ، إذا كان يتسعين بذلك على طاعة الله ، وأداء واجبه نحو ربه وأهله وأُمته ، وإظهاراً لنعمة الله عليه ، ففى الحديث : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (٢) .

وقد مرَّ بنا حديث سعد بن أبى وقاص : أن المؤمن يؤجر فى كل عمل يبتغى به وجه الله ، حتى فى اللُّقمة يرفعها إلى فم امرأته .

وأعجب من ذلك : أن شهوة الجنس إذا قضاها المؤمن فى الحلال ، كان له

---

(١) « إعلام الموقعين : ٢/١٢٢ ، ١٢٣ - طبعة السعادة بمصر - بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب الأدب من سننه (٢٨٢٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : حديث حسن .

فيها أجر ومثوبة عند الله ، وفى هذا جاء الحديث الصحيح : « وفى بُضْع أحدكم صدقة » قالوا : يا رسول الله ؛ أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ كذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر » (١) .

* *

● النيَّة لا تؤثر فى الحرام :

وإذا كان هذا هو تأثير النية فى كل تلك المجالات ، فمن المتفق عليه أنها لا تؤثر فى الحرام ، فحسن النية ، وشرف القصد ، لا يحيل الحرام حلالاً ، ولا ينزع منه صفة الخبث التى هى أساس تحريمه (٢) .

فمن أكل الربا ، أو اغتصب مالاً ، أو اكتسبه بأى طريق محظور ، بنية أن يبنى به مسجداً أو ينشئ داراً لكفالة اليتامى ، أو يؤسس مدرسة لتحفيظ القرآن ، أو ليتصدق بهذا المال الحرام على الفقراء وأهل الحاجة ، أو غير ذلك من وجوه الخير ، فإن هذه النية الطيبة لا أثر لها ، ولن تخفف عنه وزر الحرام ، فقد أكدت الأحاديث الصحيحة : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » (٣) .

وفى حديث ابن مسعود : « إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » (٤) .

والحرام لا تطهره الصدقة ببعضه ، بل لا بد من الخروج عنه كله ، ثم إن المال الحرام ليس مملوكاً لحائزه حتى يجوز له التصدق منه ، بل هو مملوك لصاحبه الأصلى ، فلا يقبل منه إلا أن يرده إليه أو إلى ورثته .

---

(١) رواه مسلم : وقد تقدم .

(٢) انظر : كتابنا « الحلال والحرام فى الإسلام » ، الباب الأول ، تحت عنوان « حسن النية لا يبرر الحرام » .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة برقم (١٠١٥) وهو جزء من الحديث العاشر فى الأربعين النووية والخمسين الرجبية ، ورواه البخارى فى الزكاة فى حديث آخر ، بلفظ : « ولا يقبل الله إلا الطيب » .

(٤) قال الهيثمى : رواه أحمد ورجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف . المجمع : ١٠/ ٢٨٨

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام يرفض مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » ، ولا يقبل إلا الوسيلة النظيفة للغاية الشريفة ، فلا بد من شرف الغاية وطهارة الوسيلة معاً .

* *

● إخلاص النيَّة أساس القبول :

ولا بد مع استحضار النية من تجريدها من كل الشوائب والرغبات الذاتية والدنيوية ، وإخلاصها لله تعالى فى كل عمل من أعمال الآخرة ، حتى يحوز القبول عند الله .

ذلك أن لكل عمل صالح ركنين لا يُقبل عند الله إلا بهما :

أولهما : الإخلاص وتصحيح النية .

وثانيهما : موافقة السُّنَّة ومنهاج الشرع .

وبالركن الأول تتحقق صحة الباطن ، وبالثانى تتحقق صحة الظاهر ، وقد جاء فى الركن الأول قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيَّات » (١) ، فهذا هو ميزان الباطن .

وجاء فى الركن الثانى قوله صلى الله عليه وسلم : « مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢) أى مردود على صاحبه ، وهذا ميزان الظاهر .

وقد جمع الله الركنين فى أكثر من آية فى كتابه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (٤) .

وإسلام الوجه لله : إخلاص القصد والعمل له . . والإحسان فيه : أداؤه على الصورة المرضية شرعاً ، ومتابعة رسول الله ﷺ وسُنَّته .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عمر بن الخطاب ، كما فى الترغيب والترهيب للمنذرى (١٥) .

(٢) رواه مسلم عن عائشة برقم (١٧١٨) ، وأصله متفق عليه بلفظ : « مَن أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » . وهو الحديث الخامس فى الأربعين ، وفى « جامع العلوم والحكم » : لابن رجب .

(٣) لقمان : ٢٢ (٤) النساء : ١٢٥

وقد مرَّ بنا قول الفضيل بن عياض : « إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السُّنَّة » ثم قرأ الفضيل قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (١) .

وكما روى عن ابن مسعود : لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا بما وافق السُّنَّة .

وقال ابن عجلان : لا يصلح العمل إلَّا بثلاث : التقوى لله ، والنية الصالحة ، والإصابة (يعني : أن يُؤدَّى على وجه الصواب شرعاً) .

فعلم مما تقدم أن إخلاص النية لا يكفي وحده لقبول العمل ، ما لم يكن موافقاً لما جاء به الشرع وصحَّت به السُّنَّة ، كما أن ورود الشرع بالعمل لا يرقى به إلى درجة القبول ما لم يتحقق فيه الإخلاص ، وتجريد النية لله عزَّ وجلَّ ، وأي عمل من أعمال الآخرة فقد الإخلاص ، فلا قيمة له في ميزان الحق ، يقول ابن عطاء الله : الأعمال صور قائمة (كالتماثيل) وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها .

فبدون الإخلاص إذن لا يُقبل عمل مهما يكنْ ظاهره الخير والصلاح .

* *

٢ - بناء المسجد لغرض فاسد :

والمثال المناسب لذلك مثلين :

الأول : هو بناء المسجد .

فلا ريب أن للمسجد مكانته وأثره في الحياة الإسلامية ، فهو دار للعبادة ، ومدرسة للدعوة ، ومنتدى للتعارف ، ولهذا حثَّ الإسلام على إنشاء المساجد

---

(١) الكهف : ١١٠

وعمارتها ، والعناية بها ، ووعد على ذلك بأجزل المثوبة عند الله ، حتى جاء فى الحديث : « مَن بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنَّة »[1] ، ولكن الحديث النبوى الشريف ينبهنا على أن هذا الثواب لمن بنى مسجداً « يبتغى به وجه الله » لا لكل مَن بنى مسجداً . . فإذا كان بناء المسجد لغرض فاسد ، وقصد سئ ، فإنه يكون وبالاً على مَن أقامه وأسسه ، إن النية الخبيثة تنْضح على هذا العمل الطيب فتنحرف به ، وتحيل خيره شراً ، وأجره وزراً .

وفى هذا الأمر جاءت قصة « مسجد الضرار » التى نزل فيها قرآن يُتلَى ، ليبين للناس أن « النوايا الشريرة » تفسد المؤسسات الصالحة ، وتذهب بكل ما فيها من خير ، ونعنى بالمؤسسات الصالحة : التى تتخذ الصلاح عنواناً لها ومظهراً ، أو التى يُفترض فيها الصلاح والخير والتقوى ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[2] .

* *

● الجهاد لغرض دنيوى :

والمثل الثانى : هو الجهاد . .

وهو أفضل عبادة يتطوع بها مسلم ويتقرَّب إلى ربه بها ، ومع هذا لا يقبله الله حتى يَخلُص من كل الشوائب الدنيوية ، مثل مراءاة الناس ، أو إظهار الشجاعة ، أو الحمية للعشيرة أو الأرض أو نحو ذلك .

---

(١) متفق عليه من حديث عثمان بن عفان . (٢) التوبة : ١٠٧ - ١٠٨

وإن المرء قد يلبس لبوس المجاهدين ، ويقاتل فى صفوفهم ، حتى يُقتل على أيدى الكفار ثم لا يُعَد عند الله شهيداً ، وما ذلك إلا لأن نيته لم تتجرد لإعلاء كلمة الله ، وداخلتها مقاصد وبواعث أخرى .

وقد جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى : أن أعرابياً أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله ؛ الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليُذكَر والرجل يقاتل ليُرَى مكانه فمن فى سبيل الله ؟ . . فقال رسول الله ﷺ : « مَن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . ومفهوم هذا : أن كل قتال آخر ليس فى سبيل الله .

* *

● صعوبة تحقيق الإخلاص :

ولا تحسبن يا أخى المسلم أن التحقق بالإخلاص أمر يسير ، وأنه فى متناول اليد لكل مَن أراد ، وأن تحصيله ممكن بأدنى جهد بلا معاناة ولا مجاهدة ، فهذا بعيد عن الحقيقة .

والواقع أن تحقيق الإخلاص ليس بالأمر الهين ، كما يظن بعض الذين يتعاملون مع السطوح لا مع الأعماق ، ومع القشور لا مع اللُّباب .

فقد أكَّد العارفون من سالكى الطريق إلى الله تعالى : صعوبة الإخلاص ، ومشقته على أنفس الخلق ، إلا على مَن يَسَّره الله تعالى عليه .

وذلك لأن الإخلاص - كما قلنا - يتضمن أمرين : استحضار النية ، وتحريرها من الشوائب .

أما استحضار النية فى العمل ، فهو مهم ، ولا يكفى أن يؤدى الإنسان العمل « أتوماتيكياً » دون أن تحضره النية وتلوِّنه وتوجهه ، والرسول ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيَّات » [(١)] . ويقول : « إنما يُبعث الناس على نياتهم » [(٢)] .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٩٢) ، وابن ماجه (٤٢٢٩) كلاهما عن جابر ، وحسّنه الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب . وذكره فى صحيح الجامع الصغير عن أبى هريرة ، ونسبه إلى ابن ماجه (٢٣٧٩) .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناد منقطع عن عمر : لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، يعنى : مَن لم يعمل العمل احتساباً لله .

وروى عن ابن مسعود أنه قال : لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية .

وقال يحيى بن أبى كثير : تعلَّموا النية ، فإنها أبلغ من العمل .

وقال سفيان الثورى : ما عالجت شيئاً أشد علىّ من نيتى ، لأنها تنقلب علىّ .

وقال زبيد اليامى : إنى لأحب أن تكون لى نية فى كل شىء ، حتى فى الطعام والشراب .

وقال أيضاً : انو فى كل شىء تريده الخير ، حتى خروجك إلى الكُناسة .

وقال داود الطائى : رأيت الخير كله إنما يجمعه حُسن النية ، وكفاك به وإن لم تَنصَب .

وقال مطرِّف بن عبد الله : صلاح القلب بصلاح العمل ، وصلاح العمل بصلاح النية .

وقال يوسف بن أسباط : تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد .

وقال : إيثار الله عَزَّ وجَلَّ أفضل من القتل فى سبيله .

وقيل لنافع بن جبير : ألا تشهد الجنازة ؟ قال : كما أنت حتى أنوى ، ففكر هنيهة ، ثم قال : امض .

وقال عبد الله بن المبارك : رُبَّ عمل صغير تعظمه النية ، ورُبَّ عمل كبير تصغره النية .

وقال الفضيل بن عياض : إنما يريد الله منك نيتك وإرادتك .

وقال بعض السَّلَف : مَن سرَّه أن يكمل له عمله فليحسن نيته ، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يأجر العبد إذا حسنت نيته ، حتى باللُّقمة (١) .

وقال الثورى : كانوا يتعلمون النية للعمل ، كما تتعلمون العمل .

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل ، وما دمت تنوى الخير فأنت بخير .

وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول : مَنْ يدلنى على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى ، فإنى لا أحب أن يأتى علىّ ساعة من ليل أو نهار ، إلا وأنا عامل من عمال الله . فقيل له : قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير ما استطعت ، فإذا فترت - أو تركته - فهُمّ بعمله (أى انوه) فإن الهام بعمل الخير كعامله (٢) .

وأما تجريد النفس من أهوائها الظاهرة والخفية ، وتصفية النية من الشوائب والرغبات الذاتية والدنيوية ، فما أشقه على النفس وما أقساه ! فإنه انتصار على الأنانية وحب الذات ، وحب الدنيا ، وفناء النفس عن حظوظها وأغراضها العاجلة ، وإنه - لو تعلمون - عظيم !

ولهذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة للنفس ، ومراقبة دائمة لمداخل الشيطان إليها ، وتنقية لها من عوامل الدغل والرياء ، وحب الجاه والظهور ، وحب المنافع الشخصية ، وهى عوامل غلابة ذات سُلْطة وتأثير على النفس البشرية ، ولهذا سئل أحد الربَّانيين ، وهو سهل بن عبد الله التُسْتَرى : أىّ شىء أشد على النفس ؟ . . فقال : الإخلاص ؛ لأنه ليس لها فيه نصيب .

---

(١) ذكر ذلك كله الحافظ ابن رجب فى شرح حديث : « إنما الأعمال بالنيات » ، وقال : خرَّج ذلك كله ابن أبى الدنيا فى كتاب « الإخلاص والنية » ، انظر : جامع العلوم والحكم ، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط ص ٧٠ ، ٧١ ، وانظر : فضيلة الإخلاص من ربع المنجيات من « الإحياء » للغزالى .

(٢) انظر الإحياء : ص ٢٦٨٨ - طبعة الشعب .

وقال غيره : تخليص النيات أشد على العاملين من جميع الأعمال .

وقال يوسف بن الحسين الرازى : أعز شىء فى الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى ، فكأنه ينبت فيه على لون آخر .

بل بالغ بعضهم فقال : طوبى لمن صحَّت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى !!

وقال بعضهم : فى إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز !

وذلك لغلبة حظوظ النفس على العاملين ، وصعوبة التجرد من أهوائها ، ولهذا اشترط القرآن لخلوص المنافق من نفاقه ، وانضمامه إلى قافلة المؤمنين : أن يخلص دينه لله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، فلم يكتف منهم بالتوبة ، والإصلاح والاعتصام بالله ، حتى يُخلِصوا دينهم لله .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللَّهُمَّ اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وكان من دعاء مطرِّف بن عبد الله : اللَّهُمَّ إنى أستغفرك مما تبتُ إليك منه ، ثم عدتُ فيه . وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أف لك به . وأستغفرك مما زعمتُ أنى أردت به وجهك ، فخالط قلبى منه ما قد علمت !

وقال محمد بن سعيد المروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين : فعل منه تعالى بك ، وفعل منك له ، والمطلوب منك فى فعله : الرضا بما فعل ، وفى فعلك : الإخلاص فيما تعمل ، فإذا أنت قد سعدت بهذين ، وسعدت فى الدارين .

ومن الناس مَن تراه فتظنه يعمل للإسلام بحرارة وصدق ، بل ربما ظن هو نفسه كذلك ، فإذا فتَّشتَ عن قلبه وسبرت حقيقة نواياه ، وجدته طالب دنيا فى ثوب صاحب دين ، يعمل لنفسه ، وهو يوهم غيره - وربما يوهم نفسه - أنه يعمل لربه !

---

(١) النساء : ١٤٥

إن الله لا يقبل القلب المدخول ، ولا يقبل العمل المدخول ، إنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه .

* *

● أهمية الإخلاص للدعاة والعلماء :

ومن هنا كان على كل مَن يدعو للإسلام ، ويعمل لنُصرته أن يحلل بواعثه ونواياه بصدق ولا يكذب على نفسه ، ولا على ربه ، فقد قال الإمام الغزالى بحق بعد أن ذكر فتنة حب الجاه والظهور والشُهرة والمحمدة عند الناس :

« وأشدُّ الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء ، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لَذَّة الاستيلاء والفرح بالاستتباع ، والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يلبِّس عليهم ذلك ، ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله ﷺ ، وترى الواعظ يَمُنُّ على الله تعالى بنصيحة الخلق ، ووعظه للسلاطين ، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ، وهو يدَّعى أنه يفرح بما يُسِّر له من نُصرة الدين ، ولو ظهر من أقرانه مَن هو أحسن منه وعظاً ، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمَّه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى ، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ، ويقول : إنما غمُّكَ لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك ، إذ لو اتعظوا بقولك لكنتَ أنتَ المثاب ، واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق ، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً ، وأعود عليه فى الآخرة من انفراده .

فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق ، يغرق فيه الجميع ، إلا الشاذّ النادر والفرد الفذّ ، وهو المستثنَى فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) . وسننقل كلامه كله فيما بعد .

* * *

---

(١) سورة ص : ٨٣